

# مؤتمر الناشرين العرب الرابع

تونس ٩-١٠ / ١ / ٢٠١٨

ندوة بعنوان

الطباعة.... وأثرها في صناعة النشر

إعداد: ناصر عاصي

رئيس مجلس ادارة "المجموعة الطباعية"

بيروت - لبنان

لما اقترحتُ عُنواناً لهذه المحاضرة، تلقَّيتُ جواباً من أحدِ الزملاء، بأن لا جدوى من عُنوانها لأن هذه المواضيع لا تهمُّ الناشرين في ظلِّ وجودِ الكتابِ الإلكترونيِّ والمحمولِ والديجيتالِ والمسموعِ وغيرِ ذلك من التسمياتِ الحديثة .

.... لكنَّ صديقنا نسيَ أنَّ هذه العناوينَ كُلُّها لما وُجِدَتْ لولا وجودُ الأساسِ ألا وهو الكتابُ وصناعتهُ، وتاريخُهُ. هذا الكتابُ الذي أُنجِزَ وصُنِعَ بتقنيَّاتٍ مُتتاليةٍ وبتطوُّرٍ لن ينتهيَ حتى معَ هذه التسمياتِ، التي أساسُها كتابٌ، وقد تطوَّرتِ البشريةُ وتطوَّرتِ العقلُ البشريُّ بفضلِ الكتابِ، لئِنْجِزَ بتقنيَّةٍ تَلَوَّ التَّقنيَّةِ كتاباً وبمعاييرٍ لا حدَّ لِتَطوُّرها؛ فمن حجرٍ وخشبٍ وأليافٍ إلى ورقٍ حتى انتهى بنا الأمرُ إلى صناعةِ الكتابِ بالوسائلِ الحديثةِ، منها الإلكترونيِّ والديجيتالِ والصوتيِّ وغيرها من الأنواعِ السائدةِ هذه الأيامِ.

## تعريفُ بصناعةِ الكتابِ

### هل كانَ للعربِ دورٌ في اختراعِ آلةِ الطباعةِ؟؟

لا يُمكننا التوصلُ إلى جوابٍ شافٍ لأن محفوظاتِ ذاتِ شأنٍ كُلُّها فُقدتْ ولم تَصِلْ إلينا...

فهل يتصدَّى لهذا الأمرِ مَنْ يُنبِزُ البحثَ ويصلُ بنا إلى الحقيقة!

ثمَّةُ إشاراتٌ تاريخيةٌ تدلُّ على أنَّ العربَ توصلوا إلى نَشْرِ الكُتُبِ من خلالِ الطباعةِ قَبْلَ الأوروبيين.. ففي مكتبةِ الآثارِ في مدينةِ - فيينا - توجدُ قطعةٌ خشبيةٌ محفوظةٌ منقوشٌ عليها بالحروفِ المَجوَّفةِ كتابةٌ عربيةٌ مقلوبةٌ على الطريقةِ المعروفةِ في اصطناعِ الأختامِ.. وفي اللوحةِ نصوصٌ عبارةٌ عن أوامرٍ عسكريةٍ كانَ يُسحُ منها الكثيرُ لِتُوَزَّعَ على قطعاتِ الجيشِ. ويرجعُ تاريخُها إلى العهدِ الفاطميِّ...

### فهل كانَ العربُ سبَّاقينِ إلى اختراعِ المطبعةِ؟!

قَبْلَ أن يَخْتَرعَ غوتنبرغُ الطباعةَ في أواخرِ القرنِ الرابعِ عشرِ الميلادي. كانَ قد طُبِعَ في مِصرَ بالقوالبِ الخشبيةِ عددٌ كبيرٌ من الكُتُبِ باللغةِ العربيَّةِ.

لا شكَّ في أنَّ انتقالَ الإنسانِ من مرحلةِ الشفاهيةِ إلى مرحلةِ الكتابةِ قد شكَّلَ نُقطةً مَفْصِليَّةً في تاريخِ التطوُّرِ البشريِّ. وككُلِّ مرحلةٍ انتقاليةٍ، كانَ لا بدَّ لهذا الانتقالِ أن يَمُرَّ بتحوُّلاتٍ مُتنوعةٍ ومخاضاتٍ عسيرةٍ، قَبْلَ أن نَعْرِفَ الكتابَ بشكلِهِ الحاليِّ.

لقد انطلقتِ الكتابةُ عندَ العربِ لِجِبِّهِمْ بدايةً لِلخَطِّ العربيِّ بِحدِّ ذاته لأنه ليس مجردَ نظامٍ عمليٍّ للحروفِ يُعبَّرُ من خلالها عن الأفكارِ فحسب، بل لِكَوْنِ الكتابِ المقدَّسِ عندَ المسلمين "القرآنَ الكريمَ" حُطَّ به، وغيره من الكُتُبِ المقدَّسةِ، وبناءً عليه أصبحَ الحُطُّ بِحدِّ ذاته والمِسْتَحْدَمُ في الرسمِ والتزيينِ والتعبيرِ عن

الأفكارِ جُزْءاً لا يَتَجَزَّأُ من الهُوِيَّةِ الدِينِيَّةِ القَوْمِيَّةِ، لذلكَ ليسَ مُسْتَعْرَباً أبداً ما قامَ به العربُ والمسلمونَ بشكلٍ عامٍّ من تَفْنِينِ في كتابَةِ الحُرُوفِ ونَسْخِ المُؤَلَّفَاتِ.

إذَنْ، وَقَبْلَ الدخُولِ في الأوضَاعِ الرَّاهِنَةِ للكتابِ والطبَاعَةِ، لا بدَّ لي بدايةً من أنْ أُوجِزَ في لَمَحَةٍ تاريخِيَّةٍ مرَاجِلَ الكِتَابَةِ والكتابِ وصولاً إلى الطبَاعَةِ إيفاءً لحُقُوقِ شُعبٍ وثقافاتٍ كانَ لها الفضلُ الكَبِيرُ في ما نحنُ عليه اليومَ.

لقد أجمعتُ غالبِيَّةُ الدَّرَاسَاتِ والبحوثِ الأركولوجِيَّةِ والحفَرِيَّاتِ الحديثَةِ على أنَّ السومريينَ هُمُ أوَّلُ مَنْ ابتدأَ الكِتَابَةَ وطَوَّرَها واستخدمَها أداةً للتواصلِ وحِفظِ الإنجازاتِ للأجيالِ اللاحِقَةِ. وقد تطوَّرتِ الكِتَابَةُ عندَ السومريينَ من التصويرِيَّةِ إلى الصوتِيَّةِ ومن ثَمَّ إلى الإشارِيَّةِ، وقد عَزَزَ هذا الرَّأْيُ مئاتٌ من ألواحِ الطينِ التي أُكْتشِفَ أَكثَرُها في مَدِينَةِ أوروكِ في بلادِ ما بينَ النهرينِ (العراقِ حاليًّا)، وقدِ استخدَمَتِ هذه الكِتَابَةُ حضاراتٌ عدَّةٌ تعاقَبَتِ عَلَيْها كالأشوريَّةِ والبابليَّةِ والآكاديَّةِ.

إلى أنْ برَزَتِ الحضارةُ المِصرِيَّةُ حيثُ حَظِيَّتِ الكَلِمَةُ بِمَكَانَةٍ خاصَّةٍ، فاستخدَمَ الفراعنةُ الهيروغليفيَّةَ في كتاباتهمِ التي جاءَ مُعظَمُها على ورقِ البَرْدِيِّ.

أما الصينيونَ فيُعزى إليهمُ الفضلُ في تطويرِ مادةِ الكِتَابَةِ ونَقْلِها منَ الطينِيَّةِ إلى الورقيَّةِ، إذ استعاضوا عنِ الطينِ بعيانِ البامبو، لِيَسْتبدلوه لاحقاً بالحَرِيرِ، إلى أنْ توَصَّلَ تساي لون (١٠٥٠م) إلى ابتكارِ الورقِ من لِحَاءِ الشَّجَرِ ونُفَايَاتِ الكِتَّانِ وَفَضَلَاتِ الأقمِشَةِ.

ولاحِقاً تَمَكَّنَ العربُ ومُساعدَةُ الصِّينِيِّينَ من إنتاجِ الورقِ في بغدادِ، لِتَشْتَهَرَ بِعَدها دِمَشقُ كَمَرَكزٍ معروفٍ لإنتاجِ أفضلِ أنواعِ الورقِ التي صُدِّرتْ إلى عددٍ كبيرٍ من البلدانِ العربيَّةِ، واشتَهَرَ مَصَدْرُهُ بِاسْمِ "الورقِ الدَّمَشَقِيِّ".

وفي ما بعد، بدأتْ مَعاملُ الورقِ تَظْهَرُ في مِصرَ، لِيبدأَ التخلِّي عنِ استخدامِ ورقِ البَرْدِيِّ شيئاً فشيئاً، وفي القرنِ الثالثِ عشرَ ميلادي انتَشَرَ الورقُ خارجَ العالَمِ العَرَبِيِّ إلى أوروبا بعدَ أن استمرَّ العَرَبُ في احتِكارِ إنتاجِ الورقِ والأجْجارِ به على مدى ٥٠٠ سنة.

ومع بدايةِ القرنِ التاسعِ عشرَ، بدأتْ طَريقَةُ العَمَلِ والمعدَّاتُ التَّقْنِيَّةُ ولوازمُ الطبَاعَةِ بالتغيُّرِ لِناحيَّةِ الورقِ وهو شَرَطٌ أساسِيٌّ في الطبَاعَةِ مُروراً بِصنَاعَةِ حُرُوفِ المِطْبَعَةِ وتنْضيدِها وصولاً إلى عمليَّةِ الطبَاعَةِ.

وقد برَزَ شَعْفُ اللبنايينَ بالطبَاعَةِ بالحَرْفِ العَرَبِيِّ في الداخلِ والخارجِ، فجلَّبوا آلاتِ الطبَاعَةِ إلى لبنانَ والمهْجَرِ، وعَمِلوا على عَرَبَنَةِ حُرُوفِها، وأبدَعوا أدباً وصحافةً وثقافةً وحَمُوا اللُغَةَ العربيَّةَ من التتريكِ.

وفي الفترة الممتدة من القرن الثامن إلى القرن العاشر، تجلّت أهمية نقل الأعمال الأدبية والعلمية من اللغتين اليونانية والسريانية إلى اللغة العربية، وإشباع هذه الحاجة إلى الترجمات، فقد أتاح استخدام الورق المستورد من الصين منذ نهاية القرن الثامن إنتاج مثل هذه الكتب بسعر معقول، وازدهرت المكتبات التي لطالما احتوت على مئات آلاف المجلدات.

وكان لا بد من وضوح خط النصوص، وإن أمكن، كما لها، فاستخدمت تقنيات الحُطوط وتعدّدت ألوان الحبر، والترويسات لتزخرف العمل وتزيد في جماله. أمّا فيما يتعلّق بالقرآن، فقد كانت هذه العناصر أكثر فخامة، والواقع أنّ فنّ كتابة الكتب وزخرفتها بلغ ذروته بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر.

كما أن ازدهار الحياة العلمية والروحية في الشرق بدءاً من نهاية القرن السادس عشر تطلّب أيضاً ازدهار المطبعة، إذ بُدلت جهود جبارة لإنشاء مطبعة للكتب العربية، ففي عام ١٦١٠ (وربما في عام ١٥٨٥)، طبع زهبان من دير قزحيا كتاب مزامير باللغتين السريانية والكرشونية (كلمات عربية مكتوبة بحروف سريانية)، وكان هذا أوّل كتاب يُطبع في العالم العربي. ثم أُغلقت المطبعة بعد ذلك لمدة ٢٠٠ سنة إلى أن أُعيد فتحها في بداية القرن التاسع عشر.

وخلال القرن السابع عشر، شهدت طباعة الكتب العربية ازدهاراً ملحوظاً مع العلم بأنّ طريقة العمل والمعدّات التّقنيّة ولوازم الطباعة لم تتغيّر كثيراً منذ أيام غوتنبرغ، إلاّ إنّ تقنيّات جديدة للطباعة بدأت تتطوّر بدءاً من القرن التاسع عشر.

بشكل عامّ كانت صناعة الكتاب تتطلب تضامراً جهود عدّة أطراف تشمل المؤلف والرسام والمصمّم والمُخرج، بالإضافة إلى ناشرٍ متخصصٍ يتمتع برؤية واضحة وقدرة على توفير الأدوات اللازمة لإنتاجه.

أما وقد دخلنا عصر - العولمة -، واختصر الكمبيوتر أزماناً في لحظات، فإنّ التاريخ على غناه، لا يعفي من تحدي العصر، والأسئلة ماثلة على باب القرن الجديد. ومن أهمّ الثورات التي انطلقت في عالمنا العربي.

أما اليوم وفي غرفة صغيرة وأمام لوحة مضاءة على حائط، صار في إمكاني تغيير حجم الحرف ونوعه أيضاً تصميم صفحاته.... وأدخل العالم الإلكتروني لأشترتي صوراً احتاجها لكتابي وأحتار من كثرة المراجع التي قد تلغي أفكارتي ودراساتي لأهميتها.

عِشْتُ الحرفَ بأشكاله كافةً وتطوُّره وعَشِقتُ الطباعةَ مُنجزاً آلافَ الكُتبِ لِكُبرى دُورِ النِّشرِ والمؤسَّساتِ الحُكوميَّةِ في العالمِ العربيِّ وشاركتُني في ذلكَ مئآتُ العاملِينَ المُختصِّينَ والفنِّينَ في صناعةِ الكتابِ.... ومُنذُ سنواتٍ قليلةٍ كانتَ كُبرى الشركاتِ المصنِّعةِ لأجهزةِ الطباعةِ تُطوِّرُ تجهيزاتِها وبالتالي تُقلِّصُ العاملِينَ فيها وخصوصاً الفنِّينَ والحرفيِّينَ الذين حلَّتْ محلَّهم قطعاً عملاقةً تُنجزُ أعمالهم.... طبعاً تطوَّرتْ صناعةُ النِّشرِ وتقلَّصتْ الأيدي العاملةُ فيها.... مما زادَ البَطالةَ وغيابَ الحرفيِّينَ وفي المقابلِ أصبحتْ هذه التجهيزاتُ تُنتجُ أضعافَ ما أنتجتْهُ سابقاتها وبالتالي فإنَّ كلفةَ الأعمالِ في ظلِّ هذه التكنولوجيا تَدنَّتْ أيضاً لِصالحِ الناشرِ الذي يُعاني حالياً من مُشكلةٍ إضافيةٍ أُخرى تُسويقُ كتابه وقِلَّةِ القراءةِ واقتناءِ الكتابِ ممَّا يجعلُ الناشرينَ يخفضونَ كمِّياتِ الطباعةِ لتصلَ في حدِّها الأقصى إلى ألفِ نُسخةٍ وبالتالي يقلصونَ مساحاتِ التخزينِ وكُلِّفةِ الأعمالِ.

إنَّ المطابعَ المنتشرةَ والمجهزةَ بأهمِّ التَّقنيَّاتِ الطبَّاعيَّةِ التي تُقدَّرُ قيمَتُها بملايينِ الدُولاراتِ، ولَدَيْها القُدرةُ الكُبيرةُ على إنتاجِ ملايينِ الكُتبِ الورقيَّةِ تبحثُ عن مَخارجٍ لِاستِثمارِها والمُشكلةُ الأكبرُ العددُ الكُبيرُ من الموظَّفينَ والمهنيِّينَ والفنِّينَ العاملِينَ في هذه المطابعِ.... سؤالٌ يطرحُ نَفْسَهُ بِرِسمِ المسؤولِينَ والمعنيِّينَ بِحَلِّ أزماتِ الشُّعوبِ الاقْتصاديَّةِ والمعيشيَّةِ.

.... إلى جانبِ ذلكَ اضطرَّرتْ هذه المطابعُ إلى إضافةِ تجهيزاتٍ جديدةٍ تُعرفُ بالديجيتالِ والتي ساعدتْ الناشرينَ على طباعةِ كمِّياتٍ قليلةٍ قد تصلُ إلى نسخةٍ واحدةٍ من أيِّ كتابٍ أو أيِّ عنوانٍ جديدٍ للنِّشرِ. هذه التجهيزاتُ التي هي أشبهُ بماكيناتِ المسحِ الضوئيِّ، مُحدثةٌ لِنتِجِ كتاباً مُتكاملاً بما فيه غلافه وتجليدهُ بالطُّرقِ التقليديَّةِ، مما يُساعدُ الناشرَ على طباعةِ الكميَّةِ التي يُريدها، كما سمحتْ هذه التجهيزاتُ وطريقهُ تَدويدها بمادَّةِ الكتابِ بنقله إلى أيِّ جهةٍ من العالمِ لطباعتهِ بأيِّ كميَّةٍ مَطْلوبةٍ.... وبالتالي ساعدتْ على انتشارِ الكتابِ بشكلٍ واسعٍ في أرجاءِ العالمِ قاطبةً.

إنَّ إعدادَ أيِّ كتابٍ ومُنذُ مباشرةٍ تحضيره على برامجِ الكمبيوترِ المعدَّةِ لذلكَ يُتيحُ لنا استِعماله لِيكونَ كتاباً إلكترونيًّا حيثُ يُنقلُ أيضاً بتفاصيله ومحتوياته كافة، ويرفع على منصاتِ الكتبِ الإلكترونيَّةِ والتي أصبحتْ شائعةً ومطلوبةً في أرجاءِ الكونِ حيثُ يُمكنُ استِقبالها عبْرَ أجهزةِ الكمبيوترِ وأجهزةِ الهوايفِ النقالِةِ وأيضاً عبْرَ أجهزةِ صُمِّمتْ مُحديداً للكُتبِ.

.... أما عنِ الكتابِ الصوئيِّ، فالأمرُ أسهلُّ بكثيرٍ بدءاً من تسجيلِ المؤلِّفِ كتابه بطريقهٍ بسيطةٍ ليُصبحَ قابلاً لِلانتقالِ أو عبْرَ شركاتٍ تمَّ تجهيزها بالصوِّتِ والمؤثراتِ الصوئيَّةِ لِسماعِ الكتابِ..... ناهيكَ عنِ

البرامج التي تُعدُّ كُتُباً تختصُّ بالطفل وتُعرفُ بالإنتركتيف أو الكُتُب المتحرّكة بالصَوْتِ والصُّورة... وأيضاً قراءةً وكتابةً.

## الكتاب المطبوع ديجيتال

### وداعاً للماكينات الطباعية العملاقة

بوجود تجهيزات طباعية تعرف بالديجيتال لطباعة نسخ محدودة من نسخة واحدة وأكثر أصبح الطلب عليها كثيراً للأسباب التالية:

١ . ضعف تسويق الكتب وعدم وجود مكاتب للتوزيع.

٢ . قلة القراءة وعدم الاهتمام بالكتب.

٣ . كلفة الطباعة الديجيتال لا تفوق بكثير عن الطباعة العادية.

وبالتأكيد يفضل الناشر طباعة كميات قليلة ويكسب بذلك عدم تخزين كميات من الكتب ويوفر بذلك مساحة التخزين وقيمة التخزين.

٤ . طباعة الكتاب بكميات قليلة لمعرفة العرض والطلب عليه وبناء عليه يقرر الناشر الكمية التي سيطلبها للسوق بشكل عام.

٥ . سرعة الإنجاز (الماكينات الديجيتال) تطبع الكتاب وتجلده بمرحلتين فقط وخلال ساعات من العمل.

٦ . جودة الكتاب تكون مماثلة تماماً لجودة الكتاب المطبوع وفي بعض الأحيان تكون أفضل لأنها تعتمد على أنظمة إلكترونية متطورة جداً.

٧ . مساحة هذه الماكينات من حيث الحجم توفر على صاحب المطبعة مساحات كبيرة وبكلفة اقل.

٨ . استعمال ورق فاخر لبعض الكتب أصبح عادياً لقلّة الكمية وبالتالي كلفة الورق تكون معقولة.

ناصر عاصي

رئيس مجلس ادارة

"المجموعة الطباعية"

بيروت - لبنان